

مداخلة بعنوان العنف والتسامح في واقع القبائل الحدودية الجزائرية والتونسية خلال
القرن التاسع عشر (معطياته وتجسيدهات)

للدكتورة كوثر العايب أستاذة محاضر "ب" بجامعة العربي بن مهيدي أم البواقي

الملخص

العنف سلوك اجتماعي وجدت له تجسيدهات واضحة في واقع حياة القبائل الحدودية الجزائرية والتونسية التي لم يكن واقع الحياة الاجتماعية فيها استثناء عن الواقع المعاشي لمختلف القبائل المنتشرة في شتى أصقاع المعمورة، والذي أملته عليها عوامل عديدة تراوحت معطياتها ما بين السياسية والاقتصادية والاجتماعية، مع ذلك فإن سلوك التسامح لم يكن غائبا عنها، أين وضعت فيه القبائل الحدودية أحقادها على جنب وهبت لنصرة ومؤازرة بعضها البعض كلما دعت الحاجة والضرورة، في مظهر اجتماعي تعاوني يجسد مدى توثق أواصر الأخوة واللحمة بين القبائل الحدودية الجزائرية والتونسية .

Summary

Violence is a social behavior for which there were clear embodiments in the reality of the life of the Algerian and Tunisian border tribes, in which the reality of social life was no exception to the living reality of the various tribes scattered in various parts of the world, which was dictated by many factors whose factors ranged from political, economic and social. Tolerance was not absent from it, where the border tribes put their hatreds on one side and gave to support each other whenever the need and necessity arose, in a cooperative social manifestation that embodies the extent of the bonds of brotherhood between the border Algerian and Tunisian tribes.

المقدمة :

أملت الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية على القبائل الحدودية خلال القرن التاسع عشر سلوك مسلك العنف والذي وجدت تجسيدات الجلية في واقع القبائل الحدودية عن طريق النشاط الإغاري الذي ازدادات وتيرته حدة إبان الحقبة الاستعمارية الفرنسية لما لهذا الأخير من يد في تأجيج نيرانه ، مع ذلك فإن سلوك التسامح وجد له حيزا هو الآخر في واقع الاجتماعي للقبائل الحدودية عن طريق المآزرة والنصرة إلى درجة جعلت المستعمر يستهجن السلوك الأول ويستغرب الثاني في دهشة تترجم كيف لنقيضين أن يجتمعا في واقع حياة قبائل يمثل حجم القبائل الحدودية ومنه نطرح الإشكال التالي : إلى أي مدى تجسدت قيم العنف والتسامح في واقع القبائل الحدودية الجزائرية والتونسية خلال القرن التاسع عشر؟

أولا العنف القبلي بين القبلة الاجتماعية وحتمية الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية

العنف لدى القبائل بصفة عامة يعتبر جبلة في سلوك هؤلاء ترسخ عندهم بسبب :

- ✓ كون هذه القبائل تسكن الأطراف من البلاد أي بمعنى بعدها عن مركز السلطة ويد السلطة وهو الشيء الذي سمح له بممارسة أنشطتها المختلفة بنوع من الاستقلالية . (الماجري، قبائل ماجر والفرانشيش خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في جدلية العلاقة بين المحلي والمركزي، 2007)
- ✓ طابع التمرد والعصيان عن السلطة والذي لا يأت إلا من خلال امتلاكها للقوة العددية والمقدرة القتالية .
- ✓ حالة العنف التي تعيشها هذه القبائل مع القبائل المجاورة لاعتبارات اقتصادية النزاع عن الأرض والمرعى مما يملي عليها حالة تأهب مستمر .
- ✓ ترسخ قيم الشجاعة والغلظة والبأس في نفوس هؤلاء لأنها السبيل لتوفير لقمة العيش وتنمية الموارد، فالتدرب على السلاح وفنون الصيد والمصارعة وكل ما يتعلق بقيم الشجاعة البدوية كانت تمثل الوسائل الأكثر اعتمادا في عملية التنشئة الاجتماعية (بوطالب، 2002)

وهو الشيء الذي أشار إليه ابن خلدون بقوله: "والغلظة في سلوك القبائل أمر طبيعي" ومرد ذلك عند ابن خلدون يرجع "لتفردهم عن المجتمع توحشهم في الضواحي وبعدهم عن الحامية وانتباذهم عن الأسوار والأبواب قائمون بالمدافعة عن أنفسهم لا يكلون لها إلى سواهم ولا يثقون فيها بغيرهم فهم دائما يحملون السلاح ويتلفتون عن كل جانب في الطرق ويتجاوزون عن المهجوع إلا غرار في المجالس وعلى الرحال وفوق الأقتاب ويتوجسون للنبات والهيئات ويتفردون في القفر والبيداء مدلين بأسهم واثقين بأنفسهم قد صار لهم البأس خلقا والشجاعة سجية يرجعون إليها متى دعاهم داع أو استفزههم صارخ". (خلدون، 2004)

ويضيف ابن خلدون قائلا فيما يتعلق بطبع العنف أو ما سمية هو بالعدوان والظلم بالنسبة لخلدون البشر بأنه خصلة موجودة مع طابع الخير ولكن الشر مغلب على الخير ما لم يوجهه وازع ديني، ويرى بأنه البشر كلما امتدت أعينهم لنعم من جاورهم امتدت له أيديهم جورا وظلما أعلم أن الله سبحانه ركب في طبائع البشر الخير والشر كما قال تعالى ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ الآية 10 من سورة البلد وقال ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ الآية 8 من سورة الشمس والشر أقرب الخلال إليه اذا أهمل في مرعى عوائده ولم يهذب الاقتداء بالدين وعلى ذلك الجرم الغفير إلا من وفقه الله.

ومن أخلاق البشر فيهم الظلم والعدوان بعض على بعض فمن امتدت عينه إلى متاع أخيه فقد امتدت يده إلى أخذ ، إلا أن يصده وازع كما قال الشاعر:

والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفة فلعله لا يظلم (خلدون، 2004).

وعليه فهذه العوامل مجتمعة ساهمت في تكريس حتمية هذه السلوك الذي تجسد في مظهر النشاط الإغاري بين القبائل الحدودية

1/ تعريف الإغارة :

لغة: أغار على القوم وغارة دفع عليهم الخيل وقيل الإغارة مصدر والغارة إسم من الإغارة على العدو وقال ابن سيده وهو الصحيح (منظور، د س ن).

اصطلاحاً : هي كل هجوم تقوم به قبيلة أو أفراد من قبيلة على قبيلة أخرى وهي نوعان إغارة داخلية إذا كانت داخل البلد الواحد ، وإغارة خارجية إذا كانت على قبيلة بلد آخر، و تنقسم الإغارات إلى قسمين: القسم الأول: إغارة قصيرة المدى إذا قام فيها عدد من الأفراد بالترصد لقافلة آتية من بعيد فيفاجئونها وخلال دقائق يجمعون سلاحها ومؤناتها وحيواناتها ثم يلذون بالفرار بسرعة، وهذه الإغارات محدودة ولا تصل إلى مستوى النشاط النظامي للقبيلة وإنما تكون على مستوى الأفراد، أما القسم الثاني وهي الإغارة بعيدة المدى: فتحتل مكانة في التنظيم الاجتماعي للمجتمع القبلي ويشارك فيها أكثر من خمسين محارب (سويدي، 1986).

فظاهرة العنف القبلي المجسدة في عملية الإغارة تعتبر أحد أهم وسائل توفير لقمة العيش وتنمية الموارد لذلك فالتنشئة الاجتماعية لهؤلاء فرضت عليهم حتمية امتلاك حس البأس و الشجاعة والتدرب على فنون السلاح والصيد والمصارعة، وهي تقاليد متوارثة تجلب للقبيلة الحظوة والمهابة والاحترام عن طريق امتلاك القوة العددية والمالية، فالحاجة الملحة لمختلف الموارد الضرورية للعيش الكريم قد دفعت بهم لممارسة هذا العنف الذي كان يتم بصورة مستمرة ودائمة ولكن وفق ضوابط تحددها الأعراف الاجتماعية (سويدي، 1986).

صحيح أن عملية العنف القبلي المجسد في النشاط الإغاري قد كانت سابقة للفترة الاستعمارية للجزائر كالهجوم الذي شنته أحد فرق النمامشة على حجاج "فاس" عام 1164هـ/1750-1751م بعد امتناعهم من أداء ما عليهم من رسوم للسلطة التونسية لتردداتهم المستمرة على أسواق الجريد، الشيء الذي دفع بحاكم تونس "علي التركي" لتسيير حملة انتقامية على هؤلاء نزولاً عند طلب الحجاج ، ولكي يسترجع لهم ما سلبه النمامشة من خيل وابل وأحمال وأموال (سعيدوني، 2000م)، لكن مؤشر سريان هذا الأعمال الإغارية أرتفع فور الاحتلال الفرنسي للجزائر ولعل مرد ذلك يعود ل :

✓ رغبة المستعمر في إحداث فجوة شقاق وكرامية وحقد بين قبائل الحدودية للبلدين ليتمكن له تجنب إقامة تحالفات وتكتلات بين القبائل الحدودية الجزائرية والتونسية من شأنها أن تهدد بزوال وجوده هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى تمكنه من حماية مناطق نفوذه من تدخلات القبائل الحدودية التونسية بمعنى تحقيق سيادته على الأراضي التي استولى عليها والتي هي بحوزته، من هنا تحرك في سبيل تعزيز سبل الخلاف والشقاق بين القبائل عن طريق حث القبائل على انتهاج هذا السلوك العنيف وهو ما عبر عنه

كاستيل في قوله : " ... وكثيرا ما كان هذا الوضع سببا في نزاعات مؤسفة بين الطرفين مرات عديدة وتكونت الأحقاد والنزعة للثأر وِعوض أن يسود السلم بين البلدين المتجاورين سادت الكراهية التي تغذي الروح العدوانية للطرفين وتحوّلت إلى أعمال سطو ونهب واقتتال (بياركاستيل، 2010م).

رغم أنّه مع بدايات وجوده في الجزائر استهجن الظاهرة واعتبرها من البدائية والتخلف وغياب الرقابة الحدودية للسلطات، بل وكانت من أبرز المحاور للضغط على السلطات التونسية لقبول بمخطط ترسيم الحدود في سبيل القضاء على هذه الصّوضاء التي تهدّد أمن وسلامة المنطقة الحدودية، لكننا نتساءل هنا عن سبب ممارسته لها إن كانت من قبل مُستهجرة ومُحقّقة لديه، بل وأرجع فاعليها إلى مراحل البدائية والمهمجية؟!، إن لم يكن لهيد من ورائها بل أن إغارات قبائل الحدود الجزائرية سجلت حضور الطرف الفرنسي كطرف فاعل وبقوة فيها ، فهو من كان على رأس القيام بهذا الأعمال، بهدف التّوسع على حساب المجال الحدودي التونسي باستخدام القبائل الجزائرية، وضّمّ المناطق الهامة إلى نفوذه (بياركاستيل، 2010م).

كما كان للمستعمر يد في تأجيج فجوة الشقاق والعنف بين القبائل الحدودية بل المسؤولية مجتمعة تقع على عاتقه لولوج القبائل لأخطر مرحلة في تاريخها وهي مرحلة لم ترع فيها أيّ من الخصائص الاقتصادية والاجتماعية للقبائل بإقدام المستعمر على إجراء تحديد الحدود بين البلدين وعمله على إرساء مبدأ الحدود الحاجزة (**barrière**) الفاصلة بين كيانين ، لكل منهما هويته وذلك من خلال إحلال مبدأ التّجاور (**contiguïté**) بدل مبدأ التّواصل (**continuité**) الذي كان سائدا في المجال الحدودي، وبهذا تمكن من إخضاع جلّ الشّبكات التبادلية للمراقبة، مما تسبب في خلخلة التوازنات القبليّة التي كان قائمة، وأضر كثيرا بنمط عيشها القبلي، الشيء الذي دفع بها لمقاومة هذا الوضع بأشكال مختلفة، وما السّطو على القوافل التّجارية وتواصل الأعمال الإغارية إلّا أحد صوره (سليمان، الأرض والهوية. نشأة الدّولة التّرابية في تونس 1574 - 1881م)، (2009م).

2/ تجليات العنف الإغاري بين القبائل الحدودية :

يعتبر النشاط الإغاري سجية وعادة متأصلة في واقع القبائل الحدودية خلال القرن التاسع عشر، كان الهدف من ورائه تحصيل الرّيح السّريع عن طريق افتكاك سلع وحمولات تلك القوافل خاصة أثناء فترة الضّنك التي تجتاحها، في فترة ندرة المحاصيل وتراجع أعداد الأغنام بفعل الجوائح (رئيسي، 2016م)،

فقبائل الحدود التونسية على غرار القبائل الحدود الجزائرية عانت الأمرين في منتصف القرن التاسع عشر نظراً للأزمة الاقتصادية التي عصفت بتراب الإيالة التونسية ، والتي أثرت سلباً على مردوديتها في مختلف النواحي، هذه الأزمة التي جاءت بفعل ازدياد الهجمة الأوربية من الناحيتين الاقتصادية والعسكرية للقضاء على القرصنة وبهدف الحصول على امتيازات تجارية أفضل لرعيها الأوربيين (هنية، 2013).

ولهذا السبب فقد تعرضت القوافل التجارية للقبائل الحدودية الجزائرية المارة بالحدود التونسية للإغارة من طرف القبائل الحدودية التونسية، خاصة من طرف قبائل الفراشيش إبان مرورهم بمجالهم الأمر أدى إلى نشوب خلافات بين القبائل الحدودية، ورغم تدخل سلطة البايلك في فرض عقوبات زجرية ومالية قاسية على القبائل المغيرة بهدف تأمين الطرق التجارية، إلا أن ذلك لم يجد نفعاً بحكم محدودية نفوذ السلطة في المجموعات القبليّة، خصوصاً وأن القيادة كانوا متواطئين أيضاً فيما يحدث من عمليات إغارية (رائسي، 2016م).

بدورها قوافل وادي سوف تعرّضت للنهب هي الأخرى من طرف "الهمامة" خلال مرورهم في الصحراء الممتدة بين سوف والجريد، والتي أسفرت على سقوط قتلى من أفراد القافلة السوفية حسب ما هو مبين في نص مراسلة القنصل للوزير الأكبر التونسي والتي جاء فيها:

«الحمد لله. تعريب مكتوب من قنصل فرانساجناب الوزير الأكبر، مؤرخ في 3 يناير 1881م.

أمّا بعد فإِنَّ حاكم عموم الجزائر قد دعاني للتنسيق فيما هو واقع الآن من الحالة المذكورة بالحدود التونسية القبليّة...هاته المدّة جيوش من الهمامة بجيول ، دخلوا الصحراء بين سوف والجريد وقتلوا زوج انفار مسافرين بشك كميّلة والحاصل أنّ الرّاحة تلك الجهة مفقودة وفي هاته المدّة الأخيرة 14 عدة انفار من "أولاد رشايش" قد ذهبوا لشراء الثّمر من الجريد وعند سفرهم تعطلوا خمسة أيام حتى يسيروا مع قافلة سوف ومدّة سيرهم في خيل توانسة تتبع أمرهم وكان قصدهم الفساد ولم يحلوا عنهم إلا بقرب الحدادة الجزائرية ورجائي من جنابكم يعلم في قرار محلة الدولة الحضارة العليّة في انقطاع هاته الحالة المودية لوقوع الخطر المستمر لبعض عروشنا إلخ معهم رستان يكتب لعامل الجريد أعمال الهمامة. جناب القنصل» (الوثيقة 81).

وعلى هذه الشّكلة أيضا كانت القوافل التّونسيّة عُرضة هي الأخرى للإغارات من طرف القبائل المارة بحدودها، كتعرض قافلة "أولاد علي" المارة على الطّرق القريبة من الحدود في اتجاه بلاد الجريد للإغارة من طرف قايد التّمامشة سنة 1278هـ، وتعرّض بدورهم عرش "أولاد وزاز" من قبيلة الفراشيش لإغارة من "سليمان بن عبيد" من عمالة الجزائر، ونهبوا لهم فيها نحو سبعة جمال مع ثور محمّل بالطّعام، أمّا في الإغارة الأولى المشار إليها سلفاً فتمّ نهب اثنين وأربعين 42 بعيراً محمّلين بالطّعام من قمح وشعير، وقتلوا لهم إحدى عشر 11 رجلاً، لأن الإغارة تحوّلت إلى مواجهة قتاليّة بين الطّرفين الجزائري والتّونسي (رائسي، 2016م).

مما سبق يتبيّن أنّ النّشاط الإغاري كان متواتراً بين القبائل الحدوديّة فتارة تغيّر القبائل الجزائريّة على القوافل التّونسيّة وتارة أخرى يكون العكس ، أين تغيّر القبائل الحدوديّة التّونسيّة على القوافل الجزائريّة المارة بمجالات تلك القبائل، وهو ما تسبب في إحداث فوضى ولا استقرار على طول الشّريط الحدودي، وأضحت القوافل فيه مُهدّدة بانتهاك حملاتها، وأحيانا أخرى بانتهاك أرواح أفرادها الذين كثيراً ما كانوا يدخلون في مجاهبات قتاليّة مع المغيرين للدفاع والدّود عن ممتلكاتهم وأرزاقهم، ولعل هذا ما يفسر القلق الذي كانت تبديه السّلطتين الاستعماريّة والتّونسيّة حيال تفشي هذه الظّاهرة التي صعب عليهم وضع حدّ نهائي لها، في ظل استمرار القبائل الحدوديّة بالرّغم من كلّ التّهديدات بحكم طبيعة القبائل المحاربة الجبولة على هذا النّشاط الحربي الذي تُحقّق من ورائه أغراض أشتّى، تتراوح بين السّيّطرة على المسالك التّجاريّة وحماية القطيع أثناء التّرحال واسترجاع ما اغتصب منها من قبائل أخرى ، وللإغارة ضد قبيلة معادية لها وغيرها من الأنشطة الحربيّة التي تكفل الحماية لها (هنية، 2013).

تترجم تراجع الوضع الاقتصادي الذي ألت إليه حالة البلدين والذي أضحي يشكّل خطراً على علاقات القبائل الحدوديّة ، من خلال تلك الأعمال الإغاريّة الضّارة في عمق القبائل ، والمستمرّة عبر الرّمن، رغم كلّ محاولات السّلطتين لكفّ القبائل عنها، مما يعطي دلالة واضحة على حالة التّصدع العام الذي ضرب عمق الاقتصاد والمجتمع الجزائري والتّونسي آنذاك، فراحت القبائل تغيّر عن بعضها البعض ، بل وتنهب بعضها البعض في سبيل تحصيل موارد اقتصاديّة في ظلّ فقدان التّوازن الاقتصادي الذي تراجعت أسسه بفعل السّيّطرة الاستعماريّة ، وأصبحت الحدود منتهكة وعصابات النهب لا تكف عن غاراتها المستمرة والدّائمة (رائسي، 2016م)، والمسروقات من القبائل من جراء هذه الأعمال الإغاريّة

توضح لنا حجم الانحطاط الاقتصادي الذي وصلت إليه حالة القبائل الحدودية ، فأثناء استقرارنا لبعض الوثائق تبين أن جمل المسروقات المثبتة هي عبارة عن محاصيل زراعية كالكمح والشعير والتمر، وكذا الحيوانات بمختلف أصنافها، كالأغنام والأبقار والبغال والخيول والحياد، وأدوات منزلية، وخيام وأثاث وحلي وملابس ونقود؛ فالقبائل كانت تفتك كلما تفتقره وما هي في حاجة ماسة إليه (الوثائق 201-203-204).

و أعمال النهب لم تقتصر على القبائل الحدودية، بل طالت حتى أملاك المعمرين (رائسي، 2016م) مما يؤكد أن الهدف الأساس من العمليات الإغارية هو النهب وجني مردود المنهوبات من ورائه، بحيث لم يُفرّق المغيرين بينما هو ملك خاص بالقبائل، وبين ما هي أملاك خاصة بالمعمرين هذا من جهة، ومن جهة أخرى تبين لنا أهمية هذا النشاط لكونه أحد بؤر الضغط على السلطات وأحد بؤر توتر وتصعد العلاقات بينهما، أين خُصّصت له السلطات الحاكمة في كلتا البلدين خلية خاصة مكلفة بتدوين مراسلات نوازل الحدود في الإيالة التونسية والمسماة بـ: "الجمعية المكلفة بنوازل الحدود" بحسب النص المقتطع من الوثيقة 89 من أ.و.ت الحافظة 213، الملف 245 والتي جاء فيها «...، في التعريف بلهية هاته النازلة التي أخبروني بها، ولا شك في كون جنابكم يبادر بصدور الإذن إلى الموظف التونسي الموجود الآن في الجمعية المكلفة بنوازل الحدود حتى يعمل غاية البحث في هاته النازلة الصادرة في قطاع الطريق الخ»، مما يعطي لنا دلالة واضحة بكثرة هذه النوازل وبضخامة هذه المراسلات التي تطرقت لهذا الشأن، ومن الغريب في الأمر أن ت ودي الزوايا دوراً هاماً في مثل هكذا أنشطة عبر حمايتها وإيوائها للمتتمردين والسراق، كالدور الذي قامت به زاوية نفطة في إيواء الجناة، لأن كل من يجتمعي بجرم الزوايا يمنع من ملاحقة السلطات بسبب احتمائه بها (رائسي، 2016م)، وعن دور الزوايا يذكر "كاستلي" في هذا الشأن قصة أولاد "سيدي عبيد" واحتمائهم بضريح الولي الصالح "سيدي عبيد" الذي كفل لهم الحماية الكاملة من الغارات المتكررة لنمامشة والهمامة في قوله: «وعلى ضفاف واد قنتيس" وقد احتسى الجميع بالطبيعة وبضريح الولي الصالح "سيدي عبيد" من غارات الفراشيش والنمامشة والهمامة وعاشت قرية "سيدي عبيد" في سلم دائم مما يجسد لنا مدى تعلق القبائل بالأضرحة واعتقادهم في دفعها الضرر عنهم حتى وان كانت غارات شديدة الوطأة بحجم غارات الهمامة» (بياركاستيل، 2010م).

3/ انعكاسات الإغارات على سلطتي البلدين والإجراءات المتخذة من قبلها للحد منها:

لقد تسببت الإغارات في عرقلة مشاريع المحتل الفرنسي الرامية لإقرار الأمن وتثبيت وجوده على الشريط الحدودي الشرقي في الجزائر، خاصة في فترة كانت تمرُّ بها الجزائر بحركات تمردٍ وانتفاضات شعبية من طرف القبائل ضدَّ وجودها، وعليه فمن منطلق إخضاع القبائل الحدودية لنفوذها وسلطانها (رئيسي، 2016م)، تحركت سلطة بسرعة وكثفت من نشاطها وتدخلاتها وسخّرت كافة الوسائل في سبيل القضاء على هذه الأعمال من خلال :

إرسال حملات تأديبية على هؤلاء كحملة الرائد "فلوني - Coan Flogny" في 24 ماي 1862م، الذي قام بالهجوم رفقة فرق لموشية على "أولاد وزاس" من "الفراشيش" حيث اقتحم دواويرهم بالقرب من جبل الشبيكة وسلب منهم عشرة آلاف رأس من الضأن، وخمسائة من الإبل، وقتل حوالي 12 من رجالهم، و ضمن الوسائل المتخذة من طرف المستعمر قيامه بتدعيم الخطوط الدفاعية كاستقدامه لستة وخمسون 56 عائلة من سوق أهراس من عرش "أولاد خيار" وتوطينهم في "بحيرة الأرنب" وفي جنوب "فج تنوكلة" لتعمير وحماية المنطقة بمراقبة كافة المنافذ المؤدية إلى تبسة، (بياركاستيل، 2010م) والعمل على إنشاء شبكة ثكنات عسكرية على طول حدود "الفراشيش" و"أولاد بوغانم" كشكنة تبسة التي تتوفر على حامية عسكرية و "برج حيدرة" العسكري قرب "ونزة" وغرب "قلعة سنان" سنة 1863م (الماجري، قبائل ماجر والفراشيش خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في جدلية العلاقة بين المحلي والمركزي، 2007م). و من خلال أيضا إيراد مراسلات في شكل موثيق وبيانات تضمُّ مطالب القبائل الحدودية الجزائرية المنهوبة من طرف قبائل الحدود التونسية .

وتحركت السلطة التونسية هي الأخرى في سبيل إيقاف حالة العنف المستفحلة على الشريط الحدودي والتي كانت تتوجس خيفة منها من تتحول إلى أحد منغصات العلاقات مع السلطات الفرنسية وهو ما كان بالفعل ومن جملة الإجراءات المتخذة نجد:

✓ وضع الحاميات وتدشين المنشآت العسكرية والأبراج لردع هذه الظاهرة المستشرية بين القبائل

الحدودية (رئيسي، 2016م)

✓ تشييد أبراج مراقبة (الماجري، قبائل ماجر والفراشيش خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في جدلية العلاقة بين المحلي والمركزي، 2007) داخل مجال الفراشيش، كـ: "برج حيدرة" و"الطبّاقة" بأرض "الحواظ"، و"برج بودرياس" بأولاد ناجي، (رائسي، 2016م).

ثانيا : التسامح عند القبائل الحدودية مسبباته وتجلياته

تداعيات التسامح بين القبائل الحدودية ومظاهره:

العلاقات الاجتماعية بين القبائل الحدودية لم ينحصر التفاعل والتواصل فيها على مظهر العنف وإنما وجدت أيضاً تفاعلات واحتكاكات أخوية، أمدتنا بصور جميلة من صور التسامح الذي نجد له تجسيدا في قيم في التعاون والتآزر والجوار والاحتماء ونصرة المظلوم بين قبائل البلدين ، خاصة في ظلّ الأزمات المختلفة التي كانت تعصف بهم، هذه المعطى الإيجابي وهو التسامح الجسد بصور عديدة يعد من القيم الفاضلة وجدت منذ القدم وغدتها وتمتتها الشريعة الإسلامية أكثر، حيث أنّ مسلسل العنف المستمر عن طريق الغورة لم يكن ليمنع من ظهور هذه النماذج المشرفة والمشرفة بين القبائل الحدودية.

1/ الاحتماء والمؤازرة :

فلقبائل الحدودية الجزائرية عانت الولايات على غرار بقية أطراف الشعب الجزائري من هذا المستعمر الفرنسي الذي لم يرقب فيهم إلا ولا ذمة، الشيء الذي دفع بهم لمقاومته مما جعلها عرضة لملاحقات سلطة الاحتلال الفرنسية فلم تجد القبائل الجزائرية الملاذ من هذه الملاحقة إلا في الاحتماء بقبائل الحدود التونسية التي كانت فتحت لها الباب عن مصرعيه ولم تغلقه في وجهها أبدا (الوثيقة 144)، بل وأكثر من ذلك جابهت م عها الخطر غير مكترثة بتبعات هذه النصرة التي لطالما عادت عليها بتبعات عقابية من طرف السلطة التونسية والسلطات الفرنسية التي لا تتأخر في إرسال تعزيزات ومراسلات اقتصاصا لحقها. كمؤازرة "أولاد بوغانم" إلى "أولاد يحي" بل قاموا بمقاتلة فلول الجند الفرنسي المتتبع لأثار "أولاد يحي"، الأمر الذي أثار حفيظة الجنرال "راندون" وقام بمراسلة السلطات التونسية ويوضح لها فيها أن هكذا أعمال من شأنها أن تنشر بذور العدواة والحرب بين البلدين في حال تغاضي الطرف التونسي عن هذه التصرفات المشينة للقبائل الحدودية التونسية (الوثيقة 162).

لقد استفزّت هذه التصرفات السُّلطات الفرنسيّة وجعلتها لا تتأخر في الضَّغط على السُّلطات التُّونسية من أجل طرد الفارين من القبائل الحدوديّة الجزائرية من أرضها والمحتمين طبعاً بقبائل الحدود التُّونسيّة (الوثيقتين 170 و 171).

ورغم كل هذه التهديد والوعيد فإن دعم القبائل الحدوديّة التُّونسيّة ظلّ مستمراً لأنّ هناك مُعطيات عديدة تفرضها، كالجوار والأخوة في الإسلام والقرابة التي تربط القبائل الحدوديّة ببعضها البعض، ومن صور دعم القبائل الحدوديّة التُّونسيّة للقبائل الحدوديّة الجزائرية هذا النموذج الذي استهجنه الاستعمار ووسمه بالتخلف والجهل والغيرة (الوثيقة 144) و محتمل في الحقيقة أنّهم لا يدركون مغزى هذه التصرفات وأهميتها في حياة هؤلاء، إذ أنّها تعتبر من الطّبائع والقيم والأعراف والتقاليد المترسخة عندهم والمتأصلة فيهم، كما هو مبين في نص الوثيقة التالية:

«الحمد لله. تعريب من الجنرال "سيريكوه" ح-اكم عنابة تاريخه 24 أكتوبر برسم حضرة قنصل جنرال دولة "فرنسا" في "تونس".

إنّ في 18 من الشَّهر الحاضر كتبت لحضرتكم بخصوص الحراية التي وقعت بين جيشي وبين العرب الذين هربوا من الحدادة والذين هم ساندين دعوة "أولاد مومن" الذين احتموا في أرضهم وهذه الحراية وقعت في ترابنا... وليست في عمالة تونس لأنهم ارادوا يسندوا دعوتهم بالقوة في أرضنا فما عندي شرح ازيدة على ذلك وهو غاية كلام الحق ولولا أنّهم افادوا سعادة الباي بكلام كاذب لما كان تظن أن يطيب خاطرني ومن غير داعي غرت على رعياه وقتلت منهم ونهبت من أموالهم إلخ، فللبتّحقيق أفعال نظير هذه هي مخالفة للمحبّة والأمان الموجود بين العمالتين والتي عندي وصاية أيّ لا أفسدها فلوجوكم إذن تخبروا سعادة الباي أنّ بعدما صدموا عليّ نهارين بالتبعية قدام القيادة التّوانسة الذين هم عند اللزوم أطلب شهادتهم حتى أيّ اعتمدت أمان عن نفسي من غير اتجاوز حدود الجزائر محل القتال الذي هو بين نبع الواد رول ومجردة هو معلوم للجميع ويبين كذب التّقرير الذي أرسله إلى سعادة الباي ففي هذه المرة أيّ سلكت بكلّ هدوء واعطيت سعادة الباي برهان في محبة دولة فرنسا له ومحبتني أنا الشّخصيّة وهذه النّازلة ما هي إلّا قصاص إلى أشخاص عاصين الحكم ألقوا بأرواحهم في هذا الخطر لداعي جهلهم وزيادة غيرتهم وأخيراً أقول أن من ذلك نتج خير من سعادة لأنّ المذكورين كانوا مقيمين في جبال عالية وعسكره لا يقدر يوصل لهم لذلك كانوا عاصيين عليه وإنّما من بعد الحراية الأشد فيهم نزل من محله

مطاع إلى السيد الصادق متفكرين أنه واقع اتفاق بين عسكر الفرنسيين وعسكر تونس في ش أن ذلك كله قروا أنهم يستاهلوا ما جرى فيهم لأنهم هم الظالمين ثم عندي بعض أسرى إذا أردتم أن أرسلهم من غير شرط مع أي كنت قاصد أطلب بمقابلتهم سبعة أحصنة مسروقين ومن الصبايحية متوعنا ومطبوعين بطابع البايك وهم في الخلة والورغة» (الوثيقة 144).

2/ الإيواء:

من مظاهر الدعم الذي بادرت به الحدودية التونسية نظيرتها القبائل الحدودية الجزائرية ، ايوائها للاجئين من الملاحقات الاستعمارية فاضطراب الأوضاع الأمنية في الحدود الشرقية عقب ثورة المقراني 1870م قد أسهم في تدفق أعداد هائلة من قبائل الحدود الجزائرية نحو تونس أين أوت أراضي "الفراشيش" و"ماجر" عدّة فرق من "الحنانشة" و"التمامشة" و"أولاد يحي" وفي فيفري 1871م تحصّنت فرق من "أولاد يحي" بالحوافظ و"فرق من "الحنانشة" بجهة "الكاف"، وفي الشهر الذي يليه مارس 1871م فرّ "الكلبوتي" ومن معه إلى تراب "أولاد بوغانم" بـ"عين عنان" حول "قلعة سنان"، وبدورها كانت القبائل التونسية تلجأ إلى القبائل الحدودية الجزائرية كلما اشتدت عليها تضييقات السلطة وملاحقاتها فتلجأ هي الأخرى إلى قبائل الحدود الجزائرية التي تجد فيها الملاذ والمأوى (الماجري، قبائل ماجر والفراشيش خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في جدلية العلاقة بين المحلي والمركزي، 2007م)، كلاجوء "الهمامة" إلى "واد سوف" فراراً من ملاحقات السلطة التونسية لهم، فرغم العداوة الكائنة بين "أهل سوف" و"الهمامة" إلا أنهم لما استجاروا بهم فتحوا لهم الباب وذلك لأن "أهل سوف" قد جبلوا على عادة نجدة من استجار بهم ولو كان قاتل أباهم (العوامر)؛ وحول حيثيات هذه المؤازرة يقول صاحب كتاب (الصُروف): «..تعاصى للهمامة بعض منهم على الباي وفعلوا أفعالاً قبيحة مع قائدهم قيل أنهم أرادوا قتله واتاه جماعة منهم فلما رأهم وعرفهم فلبس ملحفة إمراًة وخرج مستتراً بذلك ولم يعرفوه حتى خلص إلى منجاته فوجه لهم الباي قوماً أشداء تسلطوا عليهم فقتلوا هنالك منهم أناسا كثيرين وفرّ الباقيون إلى سوف فتبعتهم الخلة تقتل وتنهب إلى أن أوصلتهم إلى صحن الطريفواوي الشرقي وصحن الرُقم الشرقي ثم رجعت فاشتغل المنكوبون بدفن أمواتهم التي ماتت هناك وحمل الجرحى على الإبل ودخلوا قرى سوف وطردوهم ولما وصلوا إلى الوادي أراد بعض الناس طردهم فمنعهم البعض الآخر

قائلا أنتم أنتم مستاجرين بنا ولا نخيب المستاجير ف إننا إن عملناهم بفعلهم تساوينا في اللوم فنزلوا بالصحن الغربي القبلي من ناحية "أولاد أحمد" الذي به الجبّانة الفرنسية» (العوامر).

كما أدت قبيلة "أولاد سيدي عبيد" هذا الدور هي الأخرى عبر إيوائها لمختلف القبائل الحدودية الفارة من ملاحقات السُلطة لها وهو ما جعل السُلطة الاستعمارية تحقد على هذه القبيلة جراء دورها هذا، كما كانت لا تتردد في إيواء المقاومين وتزويدهم بمختلف ما يحتاجون إليه من مؤن وعتاد (الماجري، قبائل ماجر والفرانشيش خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في جدلية العلاقة بين المحلي والمركزي، 2007م).

3/ الهجرة :

ومن المؤازة واللحمة إلى فتح الأبواب للهجرة، هذه الأخيرة تباينت فيها الظروف التي عصفت وألهمت بالقبائل الحدودية الجزائرية وجعلت من الهجرة مآلاً للخروج من المأزق الذي تتخبط فيه ، فنجد على سبيل المثال أنه من دائرة "عنابة" هاجرت قبيلة "بني صالح" بمعدل خيمتين واستقروا في مدينة "تونس" بفعل المتابعة القضائية التي تعرضت لها القبيلة منذ سنة 1840م، ومن دائرة "سوق أهراس" هاجرت أعداد كبيرة من الخيم من قبائل مختلفة، حيث هاجر من قبيلة "أولاد تليل" حوالي مئتي (200) خيمة استقرت بناحية "شارن" بتونس، وهجرتهم هذه جاءت هروباً من المتابعة القضائية والاضطهاد الذي تعرّضت له ، ومن نفس الدائرة أيضا فرّت قبيلة "شمانة" بكاملها بحوالي سبعين (70) خيمة استقرت بناحية "شارن"، وهذا بسبب تشديد الخناق عليها من جراء مقاومتها (جابو، 2011م)

لتسهم الأوضاع السياسية كملاحقة القوات الفرنسية لبعض القبائل الحدودية مثلاً "أولاد يحيى" للهجرة إلى "تونس"، هذه الأخيرة لجأت إلى "تونس" واحتموا بـ"أولاد بوغانم" الذين قدّموا لهم كافة السند والمؤازرة في صدّهم لهجمات القوات الفرنسية المتكوّنة من فرق الصبّائية، (الوثيقة 162).

لتدلي الأوضاع الاقتصادية بدلها في رفع مؤشر هجرة القبائل الحدودية زرافات إلى "تونس"، فقد أحصت الإدارة الاستعمارية فرار 63 بيتا من سكان الحدود الجزائرية (الوثيقة 108) بفعل التهرب من الضرائب، وهو ما يؤكد على ثقل هاته الضرائب التي لا تتوافق مع محدودية دخل هؤلاء ، وأن الأوضاع الاقتصادية التي آلت إليها حياة هؤلاء قد دفعتهم للهجرة نحو تونس (Roger، 1954).

لتسهم الأوضاع الاجتماعية التي تتخبط فيها القبائل الحدودية الجزائرية في دفع القبائل الحدودية للهجرة نحو "تونس"، مما يؤكد على أهمية ودور الحالة الاجتماعية في تثبيت دعائم الاستقرار أو زعزعته بالنسبة للقبائل الحدودية فمن دائرة "سوق أهراس" هاجرت قبيلة "أولاد مؤمن" بعدد خيام بلغ حوالي مئة وخمسة (105) خيمة استقروا بناحية "ورغة" عقب الاضطرابات الاجتماعية التي أعقبت مقتل شيخ القبيلة سنة 1852 (مديني، 2015م). لقتهم انتشار الفقر والمجاعات التي عصفت بالمجتمع الجزائري في هجرة العديد من الأسر والقبائل، كمنطقة "وادي سوف" و"بسكرة" و"تبسة" و"ورقلة" إلى الأراضي التونسية (زروال، 2017)، بالإضافة إلى قبيلة "أولاد عبيد" التي رحلت وفود منها إلى "تونس" وهي خالية الوفاض بفعل افتقارهم المادي ومعاناتهم النفسية والاجتماعية (الماجري، القبيلة الولائية والاستعمار أولاد سيدي عبيد والاستعمار الفرنسي في الجزائر وتونس، 2013م).

صحيح أن تردي الأوضاع والاجتماعية والسياسية التي كانت تمر بها القبائل الحدودية الجزائرية والجزائر المحتلة بشكل عام قد جعل من منطقة الحدود ومن الجزائر لا تكون منطقة جذب لافتقارها للمحفزات التي تدفع بجاليات عربية للاستقرار فيها، مع كل ذلك فقد وجدت عينات لأفراد من القبائل الحدودية التونسية التي قصدت المناطق الحدودية فرارا من عقبات المتابعة السياسية من السلطة بمثل ما حصل عقب ثورة "علي بن غزاهم" عام 1867م أين لجأت عدد من القبائل التونسية المساندة له للهجرة للمناطق الحدودية في "الجزائر" بحوز "تبسة" على وجه على الخصوص، حيث تمّ إحصاء 96 رجلاً و 21 امرأة و 95 طفلاً، لكن مصيرهم كان فضيع بحكم تردي الأوضاع الاقتصادية والصحية التي ضربت إقليم حوز "تبسة" مما تسبب في هلاك هؤلاء ما بين شهري أكتوبر وديسمبر، كما نزح للجزائر عدد من الثائرين في مقاومة "ابن غزاهم" إلى جهة "تبسة" (بياركاستيل، 2010م).

وختاماً :

تمكن ظاهرة العنف في واقع حياة القبائل الحدودية الجزائرية والتونسية خلال القرن التاسع والذي كان وراء ممارسته عديد العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي أملت على القبائل حتمية هذه الظاهرة والمجسدة في النشاط الإغاري الذي عد بمثابة وسيلة ضرورية لتوفير مستلزمات القبائل دون أن ننسى ما للاحتلال الفرنسي من دور أيضا في تأجيج نيران الشقاق عن طريق الإجراءات التي لم تراعى خصائص القبائل الاقتصادية والاجتماعية ومبتغاه في ذلك إحداث قطيعة نهائية بينهما، فلم ليحدث إلا

العكس تماما أين تولدت بينهما عرى التلاحم والنصرة في تجسيد واضح لقيم التسامح أثناء الجوائح والأزمات والذي توطد أكثر عن طريق التحالف و المصاهرة وروابط الدم.

قائمة المراجع

1/ المصادر باللغة العربية

ا و ت ، الحافظة 213 ، الملف 245، الوثيقة162.

ا و ت ، الحافظة 213، الملف 245، الوثائق201-203-204.

ا و ت. (بلا تاريخ). الحافظة 213 ، الملف 245، الوثيقة 201 -203-204.

أ. و. ت: الحافظة 213 ، الملف 245، الوثيقة 201. والحافظة 213، الملف 245، الوثيقة 203 – 204.

أ. و. ت: الحافظة 213، الملف 245، الوثيقة144.

أ. و. ت: الحافظة 213، الملف 245 الوثيقة 108.

أ. و. ت: الحافظة 213، الملف 245 الوثيقة 144.

الوثيقة 162، ا و ت ، الحافظة213 ، الملف245.

أ. و. ت: الحافظة 213، الملف 245 الوثيقتين 170 و171.

أ. و. ت: الحافظة 213، الملف 245 الوثيقة81.

أ. و. ت: الحافظة 213، الملف 245 الوثيقة89.

2 إبراهيم العوامر. الصروف في تاريخ الصحراء وسوف. تأليف الصروف في تاريخ الصحراء وسوف (بلدية تغزوت ولاية الوادي: مخطوط بالمكتبة المنزلية لعمار عوادي .

بياركاستيل. (2010م). تأليف بيار كاستيل، حوز تبسة، دراسة وصفية جغرافية تاريخية لإقليم تبسة وأعراسه من فجر التاريخ إلى بداية القرن العشرين (محمد العربي العقون، المترجمون، المجلد ط1)، الجزائر: مطبعة بغيجة حسام.

/ المصادر باللغة الأجنبية

Roger ,Leonard (Gouverneur Général de l'Algérie), **territoire du sud l'Algérie, compte rendu de l'oeuvre accompli de (1947 – 1952)** , imprimerie officiel, Alger, 1954

ابن منظور. (د س ن). تأليف لسان العرب (صفحة 3314). د م ن ، .

إدريس رائي. (2016م). القبائل الحدودية التونسية الجزائرية بين الإجارة والإغارة (1830-1881م).، تأليف إدريس رائي، القبائل الحدودية التونسية الجزائرية بين الإجارة والإغارة (1830-1881م)، (المجلد ط1، الصفحات ص ص. تونس،: دار المتوسطة للنشر.

الأزهر الماجري. (2013م). القبيلة الولائية والاستعمار أولاد سيدي عبيد والاستعمار الفرنسي في الجزائر وتونس. تأليف القبيلة الولائية والاستعمار أولاد سيدي عبيد والاستعمار الفرنسي في الجزائر وتونس (المجلد ، ط1). تونس،: المغاربية للطباعة والنشر،.

الأزهر الماجري. (2007). قبائل ماجر والفراشيش خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في جدلية العلاقة بين المحلي والمركزي. جامعة منوبة ، تونس: منشورات كلية الآداب والفنون والإنسانيات.

الأزهر الماجري. (2007م). قبائل ماجر والفراشيش خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في جدلية العلاقة بين المحلي والمركزي. تونس: منشورات كلية الآداب والفنون والإنسانيات، جامعة منوبة.

عبد الحميد هنية. (2013). تونس العثمانية ، بناء الدولة المحلية في البلاد التونسية والمغرب الأقصى وآليات الاندماج في خلال الفترة الحديثة ما بين القرنين 17 و19، دراسة مقارنة . تأليف عبد الحميد هنية، تونس العثمانية ، بناء الدولة المحلية في البلاد التونسية والمغرب الأقصى وآليات الاندماج في خلال الفترة الحديثة ما بين القرنين 17 و19، دراسة مقارنة . قطر : المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

عبد الرحمن بن خلدون. (2004). مقدمة ابن خلدون. تأليف عبد الرحمن بن خلدون، و عبد الله محمد الدرويش (المحرر)، مقدمة ابن خلدون دمشق - سوريا: دار يعرب.

فاطمة بن سليمان. (2009م). الأرض والهوية. (نشأة الدولة الترابية في تونس 1574 - 1881م). تأليف فاطمة بن سليمان، الأرض والهوية. (نشأة الدولة الترابية في تونس 1574 - 1881م) (المجلد ط1، تونس: نشرات كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية.

محمد سويدي. (1986). تأليف محمد سويدي، بدو الطوارق بين الثبات والتغير، دراسة سيوسيو-انثروبولوجية في التغير الاجتماعي، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.

محمد نجيب بوطالب. (2002). سوسولوجيا القبيلة في المغرب العربي. تأليف محمد نجيب بوطالب. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

ناصر الدين سعيدوني. (2000م). وراقات جزائرية. دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني. تأليف ناصر الدين سعيدوني، وراقات جزائرية. دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني (المجلد ط1)، بيروت: دار الغرب الإسلامي.

المجلات والدوريات

جمعة بن زروال. (2017). «هجرة زعماء الطرق الصوفية التونسية نحو الجزائر ونشاطهم السياسي والدبني الشيخ سيدي علي النفطي والحاج محمد لخضر السهيلي نموذجا»، مجلة علوم الإنسان والمجتمع، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خيضر بسكرة.

أطروحات الدكتوراه ورسائل الماجستير

أحمد بن جابو. (2011م). المهاجرون ونشاطهم في تونس 1830 - 1954م. تأليف أحمد بن جابو، طروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه (غ.م)، تخ: التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ والآثار، تلمسان - الجزائر: كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد -

بشير مديني. (2015م). إسهامات الجالية الجزائرية بتونس في الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية

1830-1962م، الجزائر: جامعة الجزائر 2.

